ماذا عن الأجهزة الأيديولوجية للدولة؟:

"نمط الذّات هو نفس النّمط الذي تَتّسم به الأيديولوجيا أيًّا كان تعريفها "

لويس ألتوسير

يعكس النّسق التّعليمي لأيّ مجتمع نظامه الاجتماعي، وفي نفس الوقت يشكّل الوسائل الأساسية التّي من خلالها يستمر هذا النّظام. ميشيل كروزيير

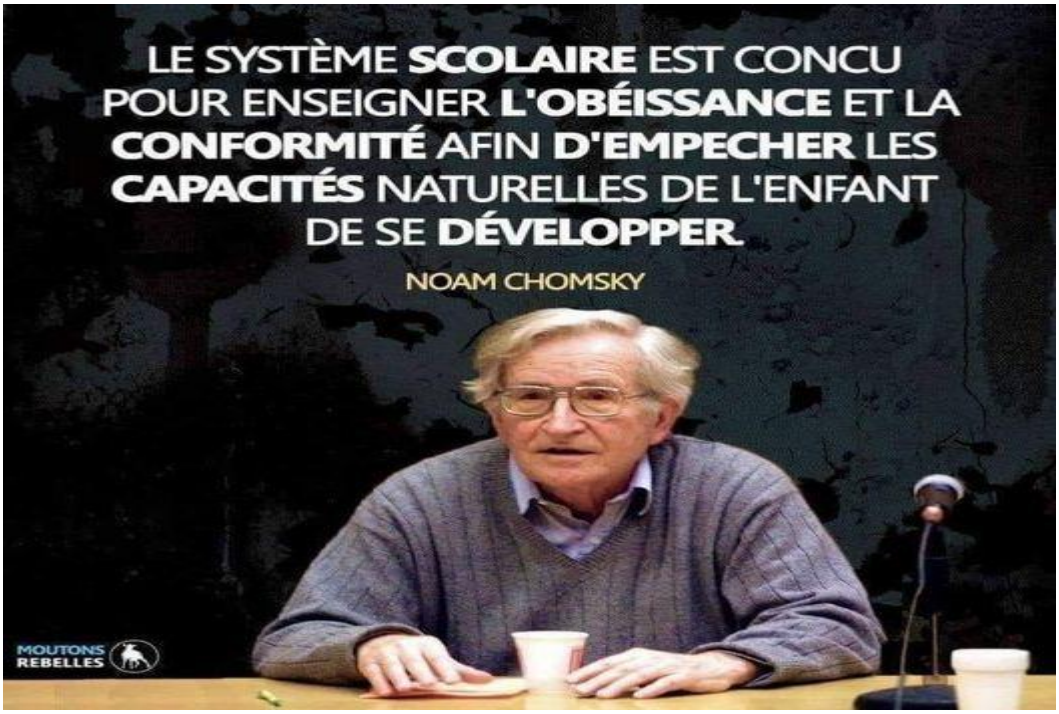

- تلعب الدولة في التّصور الماكسي عامّة (Le Léviathan)[1] -بلغة "طوماس هوبز T. Hobbs"- دورًا فعّالا في عملية ترسيخ الهيمنَة وشرعنتها، ليس عن طريق أجهزتها

[1] Léviathan هو وحش أسطوري يتخذ أشكالًا مختلفة (ثعبان ، تنين ، تمساح) ويمثل الخطر المطلق الذي يمكن أن يؤدّي إلى إبادة الأرض. بسبب جانبه الشرير ، غالبًا ما تم إدراج صورة Léviathan في الأعمال الدينية أو الفنية. اللاويين ، في الكتاب المقدس، هو وحش البحر ذو رؤوس كثيرة . كما يشير إليه التلمود باعتباره الحيوانات المتمردة على الخالق والتي يدمرها الخالق.

القمعيّة الّتي شرّحها "ماركس" من (حكومة، إدارات، محاكم، قوّات الأمن بأصنافها خاصّة الشّرطة، المؤسّسات العقابيّة (السّجن...)، وإنّما عن طريق أجهزتها الأيديولوجية كذلك، خاصّة المدارس، وسائل الإعلام، الأجهزة السّياسية خاصّة الأحزاب، دور العبادة (الكنيسة، المسجد،المعبد...)، التّنظيمات النّقابية، الجمعوية، الطّلابية الشّبابيّة،، الأسرة، دور الثّقافة،... وكلّ ما يدخل تحت توصيف "الأجهزة الأيديولوجية للدّولة". حيث قدمها -الماركسيون- كجهاز قمعي Appareil répressif بامتياز، إنّها 'آلة' قمع Une machine de répression ، تسمح للطبقات المهيمِنَة (مهما كانت هذه الطّبقة) بضمان سيطرتها على الطّبقة العاملة/المهيمَن عليها من أجل إخضاعها، لابتزاز فائض القيمة (الاستغلال الرّأسمالي) (Althusser, 1970, p. 16).

أشرس الأجهزة الأيديولوجية للدّولة:

من بين أبرز الإشكالات الفلسفية المستَفزَّة للفيلسوف والسوسيولوجي "لويس ألتوسير Louis Althusser " (1918-1990) قضية الأجهزة الأيجيولوجية للدولة؟، طرحه في متن مقالته "Idéologie et appareils idéologiques d'État" (1970) [2] ، وإن سبقه بطرح الفكرة "غرامشي Antonio Gramsci " في نظريته عن «المجتمع المدني". أجهزة الدولة الأيديولوجية يجب أن تُختبر وتُصَحَّح ويُعاد

[2] Article publié dans la revue *La Pensée*, n° 151, juin 1970. In ouvrage de Louis Althusser, *POSITIONS (1964-1975)*, pp. 67-125. Paris. Les Éditions sociales, 1976, 172 pp.

تنظيمها حسب المكان والزّمان[3]. فالأيديولوجيا حسب "ألتوسير Althusser" علاقة خيالية بين الأفراد وظروف وجودهم الحقيقية. فهي ضرب من الخيال المعبِّر عن الواقع. والفرد لا يمكنه تَفَهُم الواقع إلاّ من خلال الأيديولوجيا، ولكنّه يجد فيها القناعة لتفسير "واقع الواقع"، ومن ثمّة الاقتناع التّام والاستسلام له. والقول أنّها "وَهْمٌ Illusion" لا يعني أنّها كذلك بشكل كلّي، وإنّما لها مرتكز مادي في سياق التّنظيم الاجتماعي المعيش.

- حيث تعمل الأجهزة الأيديولوجية -والأيديولوجيا- على "إعادة إنتاج خضوع العمال لقواعد النّظام القائم، أي إعادة إنتاج خضوعها للأيديولوجية المُهَيمِنَة L'idéologie dominante، وإعادة إنتاج قدرة أعوان القمع والاستغلال Les agents de L'exploitation et de la répression على التّعامل مع الأيديولوجية السّائدة بشكل جيّد، بحيث يضمنون أيضًا 'بالكلمة' par la parole هيمنة الطَّبقة المُهيمِنَة" (Althusser, 1970, p. 11).

ومن أبرز وأقوى الأجهزة الأيديولوجية نذكر:الجهاز السّياسي، الجهاز الدّيني، الجهاز التّعليمي (المدارس العامة والخاصّة)، الجهاز الأسري، الجهاز القانوني، الجهاز النّقابي، الجهاز الإعلامي، الجهاز الثّقافي.

الفكرة العامة: لا يمكن أن تحقيق السّيطرة الطبقية وإعادة إنتاج نمط الإنتاج من خلال "البنية التّحتية" فقط (الأسلوب المتعيَّن في الإنتاج الاقتصادي، بل لا بد أن يتعاضد «الكل»، أي من خلال مختلف البنيات السّياسية والاجتماعية والقانونية والتّعليمية التي تُهَندِس "البنية الفوقيّة"، والتي تتضافر مع البنية التّحتية لتحقيق " سَرمَدَة الهيمنة"

ولتقريب الفهم أكثر لاحظ الشّكل الموالي لتعاضد الأجهزة فيما بينها

- أجهزة مُصطنَعة تتعاضد فيما بينها لذات الغاية حيث "تقوم المدرسة (وأيضًا مؤسسات الدولة الأخرى) بتدريس وتلقين "مهارات Savoir-faire"، ولكن بأشكال متعددة ومتنوعة تضمن الخضوع للأيديولوجيا المُهيمِنَة L'assujettissement à l'idéologie dominante، بل و'ممارسَتها'[4]. ينسحب ذلك على الجميع، سواء جميع

4 بهدف صناعة قطيع/أفراد ما اصطلح على تسميته ب'أغنام بانورج **Panurge** de mouton' ويدل على الشخص الذي يقلّد دون طرح الأسئلة، وحيث يتبع غريزيا ما يفعله أكبر عدد من القطيع، ويندمج في حركة جماعية دون اعمال عقله النقدي أو إظهار الذكاء الذي يمكن توقعه من إنسان حر. التصرف مثل خروف بانورج هو اتباع سلوك الآخرين بحماقة دون طرح الأسئلة.

أعوان الإنتاج والاستغلال والقَمع، ناهيك عن 'مُحتَرِفي الأيديولوجيا Les professionnels de l'idéologie ' (ماركس)، بطريقة أو بأخرى بحيث يتم اختراقهم بهذه الأيديولوجية، من أجل تَشَرّب وتَمَثُّل مَهامِّهم "بشكل واعي"، إمّا من المستَغَلّين (البروليتاريينLes prolétaires)، أو المستَغِلّين (الرأسماليينLes capitalistes) ، أو من مساعدي الاستغلال (الكوادر Les cadres) ، أو من كبار كَهَنَة الأيديولوجية المُهَيمِنَة Grands prêtres de l'idéologie dominante ('الموظفين') إلخ" (Althusser, 1970, p. 12).

- يتحدث "ألتوسير" عن أشكال متعدّدة للأيديولوجيا، منها: الدّينية، الأخلاقية، القانونية، التّعليمية والسّياسية، إلخ، إنّها "منصّات للنّظر إلى العالم". بالطّبع نحن لا نفترض أنّنا نعيش واحدة من هذه الأيديولوجيات كحقيقة ماديّة (مثال: "الإيمان" بالرّب، بالواجب، بالعدل،بالوطن، بالتقدم، إلخ...) إنّنا نُقرّ بأنّ الأيديولوجيا التي نناقشها من وجهة نظر ناقدة ونفحصها كما يفحص الإثنولوجي أساطير "المجتمعات البدائية"، أنّ هذه "المنصّات للنّظر إلى العالم" هي في الأغلب الأعم خياليّة، أي لا "تُماثل الحقيقية". لذلك فإنّ إعادة إنتاج قوّة العمل تكشف، بشرط لا غِنى عنه، ليس فقط إعادة إنتاج 'تأهيلها sa qualification'، ولكن أيضًا إعادة إنتاج إخضاعها للأيديولوجية المهيمنة Assujettissement à l'idéologie dominante، أو 'ممارسةLa pratique ' هذه الأيديولوجية. بهذه الدّقة لا يكفي أن نقول: 'ليس فقط ولكن أيضًا Non

seulement mais aussi '، لأنّه يبدو أنّه ضمن أشكال الخضوع الأيديولوجي يتم ضمان إعادة إنتاج المؤهلات المطلوبة من قوّة العمل (Althusser, 1970, p. 12).